ليلى والذئب

رجاء نعمه

لا تذكر ليلى متى قصت عليها جدتها للمرة الاولى حكاية الذئب وتوائم العنز الثلاث : لكنها تذكر انها كانت مثل اليوم محمومة . كانت مريضة في فراشها والجدة تحتضنها والوقت مساء والظلام لا يعكر صفاءه سوى اشعاعات ضوء الكاز التي تؤرجحها ريح الشتاء . كانت محمومة مثل اليوم ، اليوم وهي تسير شبه تائهة على الكورنيش الموازي البحر ، تنتصب امامها صخرة الروشة الهائلة المريعة . هنا ينتحر اليائسون .. يلقون باجسادهم من فوق ، يرتطمون بالهوة ثم يهمدون في القاع .. ترى هل قررت الانتحار ؟

لا تذكر ليلى كم كانت سنها ، لكنها تذكر تماما حتى وان سئلت الان وهي محمومة والصور تعبث في رأسها والقافلة تتبع خطاها بقسوة ، تتبعها خطوة خطوة ، ذلك الرجل زوجها وامها وابوها وجدتها ، لو سئلت لاكدت انها منذ ان سمعت الحكاية للمرة الاولى لم تصدق ان الذئب لم يفترس العنزات الصغيرات . وعلى الرغم من انها سألت جدتها والحت عليها واستحلفتها وبكت فحلفت لها الجدة بكل غال مؤكدة ان الذئب قد ارتد خاسرا اذ فوجيء بام العنزات وقد وصلت قبله . الا ان ليلى لم تصدق ذلك . تلك الليلة نامت والذئب يتراءى لها راكضا لاهثا يحث جسده بباب بيت العنزات مدعيا انه امهم فيشترطون عليه ان يمد ذيله ليتحققوا ان كان قصيرا كذنبها . اللعنة .. وماذا يفعل بذيله ، ذلك الذيل الطويل الكث ! صورة النملة تمثل امام الذئب وهنا بدات اللعبة ، بدات ولم تنته . سيدتي النملة: يا ايتها الملكة الجبارة ، خادمك انا ورهن اشارتك، اني اتضور جوعا وما عرفت في حياتك جوع الذئاب . رفضت العنزات الحقيرات فتح الباب عندما شاهدن ذيلي ، ذلك الذيل اللعين ، من خلال الثقب . اقضميه ، انك لمخلوقة بارعة قادرة على كل شيء ، اجعليه قصيرا كي يتسنى لي افتراسهن . تقضمه . لا تقضمه . تقضمه . جدتها تقول ان النملة ابت أن تفعل ذلك مجانا وحاجتها للقمح تفوق حاجته للحم الندي . اذهب الى البيدر واحضر لي كيلا من القمح يكفي شتائي فاقضم ذيلك وتأكل توائم العنز . لماذا ينتظر الذئب الرحمة تأتيه من النملة ؟

كانت ليلى تنظر اليها بدهشة وتفكر : اتملك تلك الحشرة الضعيفة كل القوى الخارقة تلك ؟ مصير العنزات رهن بفم النملة . الريح تصدها الى الوراء ، تكاد تمزق ثوبها ، تتعبأ بجسدها ، تجلس على حافة الرصيف المطلة على الصخرة المريعة . القافلة تنظر اليها من بعيد، ذاك الرجل ، زوجها ، يتابع تحركاتها بفضول لكنه يظل بعيدا ، انه يتساءل دون شك : ترى هل قررت الانتحار؟ تعاود السير متمهلة ، تتمهل القافلة خلفها ، نظرات والديها تفيض رجاء ولوما ، العنزات ينتظرن مصيرهن

بقلق غامض . صخرة الروشة العملاقة تنتصب امامها باغراء جنوني ، تهتز صورتها فتصبح عدة صخرات والذئب قابع فوق سطوح البنايات العالية الفخمة يبتسم بخبث للقافلة التي تسير باصرار خلفها تلهث فتحث القافلة الخطى ، يقهقه الذئب فيخرج صوته كزئير الاسد ، ترى هل قررت الانتحار ؟! .

كان الليل طويلا والجدة تحتضنها وليلى اصبحت جزءا من اللعبة . تصرخ وتستيقظ ثم تعاود النوم فيعاود الذئب رحلته وعليه ان يقنع البيدر : سيدي البيدر : ايها البيدر العظيم ، يا ابدع ما انتجته البيادر واكرم .. اعطني شيئا من القمح اعطيه للنملة تلك العاهرة تقضم ذيلي فآكل توائم العنز ..

افاقت ذات صباح فسمعتهم يتجادلون بأسى ،الاب والام والجدة . رفضت الجدة باصرار مغادرة القرية وحذرت ابنها من ذلك فقال لها : الارض هذه كأفواه اولادي لا تعرف الشبع ، والارض هذه عاقة تأخذ ولا تعطي فاجابته بحزم : الخير والبركة في هذه الارض التي تنبت كل عام اصناف من الزرع ولا تدع احدا يموت جوعا أو عطشا . اجابها : من لا يموت من الجوع يتضور منه . وفي المدينة حل اخر .

الذئب في القرية فاجر دون قلب أو رحمة والقضاء عليه يبدو مستحيلا .. منذ سنة انجبت عمتها طفلا مات بعد اشهر فقالوا اصابته الحمى ، الا ان ليلى كانت تعرف ان الذئب قد فعلها هذه المرة ايضا والا لم يموت الاطفال في القرية ؟!

المدينة بعيدة ، لا تعرف كم تبعد المدينة ، فهي لم تذهب اليها ابدا لكنها بعيدة جدا وليس من اليسير على الذئب ان يصل اليها ، غير ان الجدة ابت الذهاب معهم : ابقى هنا احرس البيت والارض والعنزات والدجاج . هنا ولدت وهنا عشت وأموت هنا . والمدينة ليست لامثالنا ، كتب علينا الفقر لكن القناعة فضيلة . والجدة كأطفال القرية افترسها الذئب بينما كانت مشغولة في الحقل ، انقض عليها غدرا ، صرخت واستنجدت وقاومت ثم نشبت بينهما معركة مريعة . لكنها ماتت ، بعد سنة واحدة من نزولهم المدينة . استرحمتها ليلى ان تأتي معهم توسلت اليها، قبلت يدها فلم تغير رأيها . لماذا تتخلف الجدة عن القافلة ؛ تسمعها من بعيد تناديها بصوت خافت كمواء القطط فتتابع القافلة مسيرتها غير آبهة بنداء الجدة العاجزة عن اللحاق بالموكب والذئب قابع فوق ، على اسطح الابنية الفخمة يقهقه ساخرا من العجوز كأنما ليذكرها بمعركتها الخاسرة . زوجها .. لا تعرف ان كان زوجها ام لا . قال : اتزوجك فجنت فرحا ثم عاد وقال : لا . يسير مع القافلة ، يمعن النظر في الموقف يتفحص كل شيء ، ترى هل قررت الانتحار ؟

هو الذئب نفسه ام ذئب اخر ام ان لكل مدينة او قرية ذئبها ؟ لكنه كان هناك ايضا . في القرية لم يكن يفوت مناسبة الا ويحضرها ولطالما رأته يرقص في الافراح؟ يهرول بين ارجل الشبان وهم يدبكون او يقفز على اكتاف النسوة والصبايا وهن يزغردن للعروسين .وليالي الافراح لا تنام ليلى عادة ، كانت تتمنى لو تخبرهم ، تحذرهم منه . تقول شيئا ، كلمة ، حتى التلميح بدا مستحيلا طالما ان جدتها نفسها اجابتها مرة : انت تخرفين يا ليلى ، مات الطفل من الحمى ، اما العروس فقد اصيبت بمرض كفانا الله شره ، والذئب لا يأتي الى القرية، قد يمر في الحقول البعيدة لكنه لا يجرؤ . ظلت الجدة تؤمن ببراءته حتى ذهبت ضحيته ، لطالما فكرت : امن الممكن ان يعجز هذا الخبيث عن افتراس العنزات الضعاف الصغيرات ؟! لقد اكلهن يا جدتي ، اكلهن وانتهى الامر ، عادت الام فلم تجد سوى بقع الدم وبعض الاشلاء .. افتحي فمك يا ليلى ، هذا الدواء مفيد للحمى، قولي بسم الله الرحمن الرحيم ، لعنة الله على الشيطان الرجيم ، ليكن فيه الشفاء ونامي . نامت الجدة فتابع الذئب رحلته .. رفض البيدر ان يعطيه قمحا ، وماذا يفعل بقمحه المكدوس الذي لم يدرس بعد ؟ اذهب ايها الذئب ان اردت قضاء رغبتك وادع الفرس تأتي تدرس القمح هنا فأعطيك بعضه تعطيه للنملة تقضم ذيلك يصبح قصيرا فيتسنى لك خداع توائم العنز. لكن من اين للفرس ان تذهب الى البيدر البعيد وهي تكاد تقضي عطشا؟ جرة من الماء والا فلا . وصلوا المدينة ، جميلة المدينة يا جدتي . ظلت السيارة تتوغل في قلبها ، تنحرف يمينا وشمالا وتتوغل وتنحرف ، وبهاء الابنية التي طالعتها في البدء اخذ في التضاؤل ، ظل جمالها يخبو شيئا فشيئا وتضيق شوارعها بهم وبغيرهم حتى وصلوا . كانت دهشة ليلى كبيرة عندما عرفت انهم سيسكنون جميعا ، هي واخوتها ووالدها ، في غرفة واحدة في الطابق الاسفل ، تحت ، في اول غرفة على يمين مدخل البناية ذات الطوابق السبعة . قد يتغير الحال فينتقلون الى احد الطوابق العليا ضحكت الوالدة لهذه الاحلام وغمغمت بكلام غير مفهوم . فكرت ليلى انها في الغد ستبحث عن اولاد تلعب معهم . لا يلعب الاولاد في المدينة الا فيما ندر . قد تذهب الى المدرسة كما كان الحال في القرية . قال الرجل الانيق صاحب البناية : اعطيكم غرفة ثانية مستودع الحوائج افرغه من محتوياته ، غير ان زوجتي لا تقدر على النهوض وحدها بأعباء البيت . ما علاقة القبو بالغرفة بزوجته واعباء البيت ؟ نظر الى ليلى فقال والدها مدافعا : ما تزال صغيرة . كم سنك يا صبية ؟ اثنتا عشرة سنة. صبية ما شاء الله . ستلعبين مع الاطفال وتكبرين عندنا . الخوف وحب الاستطلاع والموقف غامض . ستلعب ام تخدم السيدة ام ماذا ؟ ليت جدتها كانت هنا

لتسألها .افتكروا في المسالة ، الغرفة الثانية تسهل عليكم العيش . لا نافذة في القبو،اجاب والدها معترضا. ليس للنافذة تلك الاهمية ، تفتحون الباب في النهار والصيف . وتقفلونه في الليل والشتاء . ماذا لو جربت ليلى حظها اسبوعا ؟ دامت التجربة ثلاث سنوات .

ابت الفرس الذهاب الى البيدر ، هرول الذئب الى نبع الماء : سيدي النبع . رحماك . جرة واحدة تروي غليل الفرس العطشى . نظر اليه النبع بكبرياء وضجر . ارتد الذئب خطوتين . عاد النبع يناديه ، ابتسم الذئب ارتياحا . عشرة طوابق اجتازتها ليلى في المصعد حتى وصلت بيت السيد الانيق ، وزوجته انيقة ايضا وانتظرت الاطفال طويلا حتى عادوا من المدرسة ، كم هم جميلون اطفال هذه المدينة .. والبيت جميل والاثاث جميل وكل شيىء كما راته في حكايات الملوك . لم تلعب ليلى مع الاطفال . لعب الاطفال وحدهم . لكنها في المساء وككل مساء قصت عليهم حكاية الجدة : قالت النملة لا اقضم ذيلك حتى تاتيني بقمح البيدر ، وقال البيدر احضر الفرس فأعطيك قمحا ، وقالت الفرس الي بجرة ماء ، وقال النبع اموت ضجرا في الشتاء ، ادع الصبايا والشبان يرقصون فأمتع النفس بهم . استعذب الشبان الفكرة .. ولما عاد الذئب بذنب قضمته النملة وقال لتوائم العنز : افتحوا الباب انا امكم احمل الحليب في ثديي والحشيش على قرني اجابوه : اذهب ايها الذئب الحقير ، جاءت امنا قبلك ، اكلنا وشربنا وها نحن نتسامر في الليل . ظل الذئب يعوي حتى كاد يموت غما . فرح الاطفال وقهقهوا شماتة وصفقوا ثم غلبهم النعاس فناموا . تعلقت عينا ليلى بالسقف ، هاجمها غدرا والعجوز لم تقدر على الدفاع عن نفسها ، افترسها في الحقل وتابع رحلته .. والقافلة الا تكف عن هذا التتبع المضني ؟ الجدة تتخلف عن الركب والنملة تلك الملكة الجبارة تتقدم المسيرة بثقة وقوة ، تمشي اذا مشت وتسرع الخطى ان اسرعت فلا تدعها تستريح لحظة ، الذئب يقهقه من عل ، وتلك الصنخرة ، تلك الهوة وهذا القاع .. ترى هل قررت الانتحار ؟!

اذئب هذا ام مارد ام كابوس ؟ الليل خافت والظلمة لا يضيئها سوى بصيص نور آت من فتحات النافذة . يضيق نفسها وذلك الحمل الجاثم فوق صدرها يثقل ، تتلوى الما وفزعا تحاول ان تبصر شيئا فيعسر عليها ان نميز اذئب هذا ام مارد ام كابوس. خذي هذا الدواء يا ليلى انه مفيد للحمى ، قولي بسم الله الرحمن الرحيم لعنة الله على الشيطان الرجيم . الثقل يزداد ، تكاد تختنق تنوء بهذا الحمل تصرخ فترتد الصرخة الى حلقها ، يد تمتد ، كف كبيرة تغلق فمها ثم تسمعه يقول : لا شيء خطير البتة . خذي . دس خمس ليرات في يدها . بسم الله الرحمن الرحيم لعنة الله على الشيطان الرجيم انت محمومة يا ليلى والعروس ماتت من مرض فتاك كفانا الله شره . غير ان ورقة الخمس ليرات تشهد بذلك .

***

قال : اتزوجك ، فجنت فرحا . ولم يتزوج رجل ثري فتاة مثلها ؟ « هناك اناس ولدوا لانقاذ الآخرين » هكذا كانت تقول والدتها ، لعله منهم . ترى أيكون لها بيت جميل ككل المتزوجات ؟ تدعو السيدة اليه ،تتكلمان بالهاتف تتفقان وتتم الزيارة . وتحضر السيدة انيقة كعادتها وتكون هي انيقة ايضا . تجلس قبالتها ، تأتي الخادمة بالقهوة والحلوى وتفرغ المنافض، تاكلان وتشربان وفي يد كل واحدة منهما سيجارة طويلة والساق فوق الساق وتطول الاحاديث وترتفع القهقهات ويزداد الجو الفة . وتسألها ليلى عن الاولاد لكنها لن تذكرها بتلك الحادثة التي مضى عليها سنة او اكثر .ضبطت السيدة اوراق الخمس ليرات فبدأت بتحقيق لم ينته وصفعة بين السؤال والجواب : من اين لك هذا ؟تقولين الحقيقة او تنالين اقصى العقوبات . الحقيقة ؟ نعم الحقيقة ؟ سأقولها كاملة . . لن اخفي شيئا سأفضح الامر ولن اكتم سرا بعد الان . ولما كان الليل وتجمع الاطفال كعادتهم وكانت ليلى ما تزال مصرة على فضح المسألة ، وصل الذئب باب العنزات وشهوته لافتراسهن لا تعادلها شهوة في الدنيا ، كانت العنزة الام تهم بالدخول فدفعها الى الداخل ، اقفل الباب وهكذا اصبح في مواجهتهم تماما . ولم يشأ الذئب ان يقضي عليهم دفعة واحدة فلذة التعذيب تفوق عنده لذة الافتراس . هاجم الام ، اشبعها عضا ، اغرز مخالبه في عنقها ،في صدرها وثدييها ، سال حليبها الذي خزنته لاطفالها، سال على الارض فارتمت مغتسلة بدمائها لا يتحرك فيها سوى عينين مقهورتين . لم يشأ ان يقتلها . كان يصر على ابقائها حية لترى وتشهد التهام ابنائها واحدا واحدا .. ارتفع صراخهم الضعيف وملأ عويلهم الكوخ حتى كاد يتهاوى ، وللذئب طريقته المتفردة للانقضاض على فريسته ، قضم اذن الاول وجدع انف اخيه وفقأ عين الثالث ثم اغرز مخالبه في اعناقهم وانيابه في بطونهم . انبجس الدم من اجسادهم الصغيرة فلطخ جدران الكوخ حتى وصل السقف والكل يتمرغ ارضا دون ان تنفعه المقاومة ، وظل هكذا بين الصراع والعويل وطلب النجدة والرحمة حتى قضى عليهم .عند ذلك تربع الذئب على عرش الدم والجثث مرتاحا سعيدا يمني النفس بأكلة شهية ..

صرخ الاطفال ذعرا ، بكوا ، استرحموها : والصياد الذي كنت تحدثينا عنه يا ليلى ، الصياد الذي كان يأتي

احيانا لنجدتهم اين هو ؟ كنت اكذب عليكم . الصياد الذي كان يأتي لم يسمع استغاثتهم هذه المرة ، كان منهمكا هو الاخر بمطاردة فريسته الشاردة في الغابات والغابات بعيدة وصوتهم ضعيف كمواء القطط . انها كذبة ككل الكذبات الاخرى وحكاية قيس وليلى كذبة هي الاخرى . قيس ما احب ليلى هي التي احبته وتولهت به وقالت الشعر والغزل حتى انفضح امرها ونبذتها القبائل وتشردت في الصحاري تنشد اغاني الهوى كلما جاء الليل وهاجت بها العواطف ،وظلت كذلك حتى ذبلت وشاخت وابيض شعرها ويبس جسدها ثم ماتت . وقيس .. كان مشغولا بتدبير امور القبيلة وحل مشاكلها . القافلة تسير وراءها . تسترحمها فيصلها صوت الجدة كمواء العنزات ، انت تخرفين يا ليلى ، الطفل اصيب بالحمى ومرض فتاك قضى على العروس والذئب لا يجرؤ على المرور من هنا . انت لا تعرفينه . اهو المارد ام الذئب ام السيد ام الرجل الزوج . واجرت السيدة تحقيقا مطولا . ركض الذئب كالمجنون من النملة الى البيدر الى الفرس . قال الرجل : اتزوجك فجنت من الفرح وكان الزواج أو هكذا ظنت ، الا انها اكيدة انهما تزوجا . وبعد اسابيع قال: انتهى الزواج . الزواج انتهى والقضية تحتاج لبعض المال وانا .. لا املك شيئا تم اقترح حلا ... نعم اقترح هذا الحل نفسه .. ما تزال الجدة ساذجة عاجزة عن التصديق . ولما اعترضت واحتجت اجابها : تصدقين احلامك ومن اين لي المال ثم انها مهنة ككل المهن الاخرى ولما كان الليل .. وكان حالكا وكل شيء حالك وليس بابيض سوى اغطية السرير ، شاهدت الام افتراس ابنائها مفتوحة العينين تلطخت الجدران دما والارض دما والسرير . ومارد جثم ومارد هبط ومارد جاء ومارد ولى وعينا النملة تلمعان والثوب الابيض والسيدة والخدم والحشم والقصر والزوج وقطعة النقود كبرت وبعد اسبوعين عادت الى البيت ، انتهى الزواج، الزواج انتهى وكل شيء انتهى والقافلة تتبعها والجدة تصرخ بصوت غير مسموع والصخرة تتلألأ امامها باغراء كالجنون . الهوة تحتضنها .. القاع .. ترى اكانت قد قررت الانتحار ؟

دار الآداب تقدم

الثلج يحترق

رواية بقلم

ريجيس دوبريه

في هذه الرواية ، يقفز مؤلف « ثورة في الثورة » الى الصف الاول من الروائيين الفرنسيين المعاصرين ، فينال أخيرا « جائزة فمينا » المشهورة تقديرا لموهبته وفنه .

و « الثلج يحترق » قصة رجل وامرأة ، بوريس وايميلا ، يبحث أحدهما عن الآخر ، فيلتقي به ثم يضيعه ، ثم يلتقي به ثانية ، ويحن اليه ويفقده ، عبر أوروبا وأميركا . في النضال والعذاب والموت والقتل . من أجل حب البشر .

اختارت ايميلا ، ابنة جبال النمسا ، أن تقاتل من أجل العدالة . وتلتقي في هافانا بشاب فرنسي ، بوريس ، نجا من ثورة أخرى ، فتسحره ، ولكنها تحب زعيما ثوريا ، هو كارلوس ، وتذهب فتعيش معه في « لاباز » ، في الخفاء والفرح ، الى اليوم الذي تغتاله الشرطة البوليفية . وتفقد ايميلا كل شيء : الرجل الذي تحبه ، والطفل الذي تنتظره ، والمعركة التي تخوضها ، ولكنها لا تترك الدرب الذي سلكته ، فمن كوبا الى التشيلي ، ومن بوليفيا الى انكلترة ، ومن باريس الى همبورغ ، تضطلع بقدرها حتى النهاية . قدر المرأة المناضلة .

ان « التاريخ » يسكن قصة هؤلاء الابطال . فهو لحمهم ، وعذابهم ، وألمهم . ان سعادة بوريس وايميلا مستحيلة ، ولكن أناسا آخرين سيكونون يوما ، بفضلهما ، أقل شقاء .

ان هذه الرواية أغنية حب في مأساة عصرنا . توكيد ارادة للحياة وللنضال .

تصدر في الشهر القادم